رأي في التشبيه المقلوب

الدكتور
جليل رشيد فالح
كلية الآداب — جامعة الموصل

تمهيد

من بداهة القول التي هي غنية بنفسها عن الدليل ان علوم العربية نحوهـا وصرفها وبلاغتها فضلاعن معجماتها وموضوعاتها اللغوية بنيت على ما جمعه العلماء من كلام العرب : شعرهم ونثرهم .

ومن ثمة كان من نافلة الكلام ان تكون للنص الفصيح الموثق قيمتها الاعتبارية في بناء القواعد ووضع الضوابط العلمية ، وفي حسم الخلافات التي تنجم في سبيل اقرار الصحيح والسديد . والحذر من الخطأ والخطـل ، فضلا عن الاستهداء بما توصل اليه علماء هذا الميدان من تحديد المعالم اللغوية والاسلوبية والنقدية لمعرفة الفصيح والأفصح . والبليغ والأبلغ ، والجميـل والأجمل . ليكون لنا من ذلك سبيل إلى الاحتذاء والتمثل .

لذلك كان في جملة هذه القواعد والضوابط متسع للرأي وخلافه ،ليس على سبيل الهوى في الاختلاف واللدد في الخلاف ، بل مراعاة لما تهدي اليه النصوص بعد التأمل الحصيف والاستقراء الرزين من أمور تتباين في قليل أو كثير مع ما استقر من ضوابط وقواعد .

لست في معرض التدليل بالأمثلة المختلفة على ما ذهبت اليه ، وانما حسبي ان يكون موضوعي الذي حملت نفسي على معالجته هو من هذا الضرب الذي يفسح صدره للاختلاف مع ما ذهب اليه البلاغيون في ما قرروا من قواعد ورسموا من أصول .

ويدور الموضوع على ما سمي في مباحث البلاغيين بالتشبيه المقلوب أو المعكوس ، محاولة من الباحث في نفي فكرة القلب أو العكس عند المبدع (بوجه خاص) واعتداد هذه الفكرة ضرباً من التوهم لم يخطر ببال المبدع وانما هي أمر تخيله البلاغيون على وفق معايير نقدية تخالف ما قرروه هم في أصول موضوع التشبيه بعامة .

ومن أجل ذلك فان نفي هذه الفكرة سيعتمد أساساً معايير البلاغيين العامة ولاسيما في موضوع التشبيه أولا : ثم تحليل النصوص التي اعتمدوها أمثلة وشواهد لهذا اللون من التشبيه .

ومن ثمة فان منهج البحث يقوم على أربعة محاور :

١ ــ التشبيه ومعاييره الأساسية .

٢ ــ التشبيه المقلوب : ومعيار القلب عند البلاغيين . وموقفهم منه .

٣ ــ العلاقة بين التشبيه المقلوب وتشبيه المحسوس بالمعقول .

٤ ــ شواهد القلب : دراسة تحليلية .

الدراسة :

١ ــ التشبيه : ومعاييره الأساسية

لابد من الوقوف بادىء ذي بدء عند المعايير الأساسية التي نهض عليها (فن التشبيه) عند النقاد والبلاغيين ، ذلك ان هذه المعايير هي التي تشكون منطلق الدراسة ، وتحقيق هدفها الرئيس في نفي (التشبيه المقلوب)-.

انعقد اجماع البلاغيين على ان للتشبيه أركاناً أربعة هي : المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ووجه الشبه ، وقد تحذف الأداة ووجه الشبه ، الا أنه لا بد من وجود كل من المشبه والمشبه به معاً .

يقول السكاكي : « ان التشبيه مستدع طرفين مشبهاً ومشبهاً به ، واشتراكاً بينهما في وجه وافتراقاً من آخر ، ان يشتركا في الحقيقة ، ويختلفا في الصفة أو بالعكس » (١) ويقوم التشبيه ــ بعامة ــ على فكرة التماثل بين الطرفين

(١) مفتاح العلوم ــ ابو يعقوب يوسف بن ابي بكر السكاكي المطبعة الأدبية ــ ط١ ــ ص : ١٧٧ .

(المشبه والمشبه به) في وصف من الأوصاف . وقد تنوعت تحديدات النقاد والبلاغيين لمفهوم التشبيه ولكنها تلتقي في الاشارة إلى أساسيات الصـــورة التشبيهية .

يقول قدامة بن جعفر (٣٣٧ هـ) عن التشبيه « ويغلب ان يقع بين شيئين بينهما اشتراك في معان تعمهما ويوصفان بها ، وافتراق في أشياء ينفرد كل منهما بصفتها » (٢) .

ويقول الرماني (٣٨٦ هـ) : « هو العقد على ان أحد الشيئين يسد مسـد الآخر في حس أو عقل ، ولا يخلو التشبيه من ان يكون في العقل أو النفس (٣)

ويقول ابن رشيق (٤٦٣ هـ) : « صفة الشيء بما قاربه وشاكله من جهة واحدة أو جهات كثيرة لا من جميع جهاته ، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان اياه »(٤) .

ويقول ابن الأثير الحلبي (٧٢٥هـ) : «حد التشبيه أن تثبت للمشبه حكماً من احكام المشبه به قصداً للمبالغة» (٥) .

واوجز الخطيب القزويني (٧٣٩هـ) دلالة التشبيه بأنه :

«مشاركة امر لآخر في معنى» (٦)

ويقول يحيى بن حمزة العلوي (٧٤٩هـ) : « اعلم ان كل من اراد تشبيه شيء بشيء فلا بد من اجتماعهما في وصف يكون دالا على الاجتماع وعلماً

(٢) نقد الشعر – قدامة بن جعفر – تحقيق : كمال مصطفى – مطبعة السعادة – نشرة مكتبة المثنى – ط٢ ١٩٦٣ – ص : ٦٥ .

(٣) النكت في اعجاز القرآن : ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن – علي بن عيسى الرماني – تحقيق : محمد خلف‌الله والدكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف – القاهرة : ص : ٦٣.

(٤) العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده :
الحسن بن رشيق القيرواني – ت : محمد محيي‌الدين عبدالحميد ط٣– القاهرة ١٩٦٣ : ص : ٧٤ .

(٥) جوهر الكنز – ابن الأثير الحلبي – تحقيق : د. محمد زغلول سلام ، شركة الاسكندرية للطباعة – مصر .

(٦) الايضاح في علوم البلاغة : جلال‌الدين القزويني : لجنة من اساتذة كلية اللغة العربية (بالأزهر – مطبعة صبيح – القاهرة : ١٩٧١ – ص : ٢ .

دالاً على المبالغة ، ولابد ان يكون المشبه به اعلى حالاً من المشبه لتحصل المبالغة هناك وتختلف تلك الأوصاف الجامعة» (٧) .

يستخلص من ابرز ما قدمنا من تحديدات لما هية التشبيه ان هذا الفن في بنائه التركيبي يعتمد على امرين اساسيين: وجود الطرفين ، وهذا مما لاخلاف عليه — ثم العلاقة الاقترانية التي تتجاوز حدود المألوف إلى المتخيل والمتصور، كما يفهم من مقولة الرماني — بنحو خاص — ، على ان ابن الاثير كان اوفر دقة في الكلام على طبيعة هذه العلاقة الاقترانية ذلك انه يلفت الانظار إلى ان محور العملية الفنية في هذه العلاقة هو (المشبه به) ، اذ انه مصدر القوة وبؤرة الاشعاع حين يسبغ على المشبه ابرز ما يتوافر فيه من صفة تبدو ضئيلة المقدار اصلاً في المشبه .

وكان القاسم السجلماسي (توفي في القرن الثامن هـ) اكثر نزوعاً نحو فنية الرؤية ركز حين على عنصر الخيال في نسيج التشبيه اذ قال عنه :

«هو القول المخيل وجود شيء في شيء» (٨) .

ومما يهمنا في هذا السياق ان نؤكد ان العلاقة الاقترانية هي حالة تخضع للخيال بقدر وافر — على نحو ما اشار السجلماسي — وليس عملية اقترانية بمعايير عقلانية بحتة ، او مقاييس هندسية صارمة — وقد صرح السيوطي (٩١٠هـ) بذلك في قوله: «لا يوجد ذلك المعنى الاعلى سبيل التخيل والتأويل» (٩) ومن ثمة فان المبدع الذي يّعول البحث على رؤيته الفنية يوظف هذا الفن في ضوء عملية الابداع التي لا تخضع لمقاييس جاهزة تفرض عليه .

(٧) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم الاعجاز — يحيى بن حمزة العلوي . مطبعة المقتطف — القاهرة : ١٩١٤ — ١/٢٦٦ .

(٨) المنزع البديع في تجنيس اساليب البديع : ابو محمد القاسم السجلماسي، تقديم وتحقيق — علال الفاري — مكتبة المعارف : الرباط ١٩٨٠ — ص ٢٢٠ .

(٩) شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان : جلال الدين السيوطي . مطبعة عيسى البابي الحلبي — مصر : ص : ٧٩ .

وليس من الانصاف ان يلزم النقاد والبلاغيون الشعراء ان تنحصر تشبيهاتهم على ما هو معروف ومتداول عند العرب ، على نحو ما ذهب اليه ابو هلال العسكري (٣٩٥هـ) في قوله :

«وأما الطريقة المسلوكة في التشبيه والنهج القاصد في التمثيل عند القدماء والمحدثين فتشبيه الجواد بالبحر والمطر ، والشجاع بالأسد ، والحسن بالشمس والقمر ، والسهم الماضي بالسيف ، والعالي الرتبة بالنجم ، والحليم الرزين بالجبل ، والحيي بالبكر ، والفائت بالحلم ، ثم تشبيه اللئيم بالكلب ، والجبان بالصفرد (طائر جبان) والطائش بالفراش» (١٠) .

وقد اخذ بعض المحدثين بفكرة الجري على سنن القدامى ، فقال بعضهم :

«ان الأصل في التشبيه ان يجري على السنن المعروف عند العرب والذي يتمثل في ان يلتمس المشبه به مما هو معروف ومألوف في حياتهم حتى ولو كان المشبه اقوى و اعظم في الصفة التي يشترك فيها مع المشبه به» (١١) .

وأرسى العلوي — صاحب الطراز — قاعدة التصور الأمثل لثمرة التشبيه ، وفائدته في قوله : اعلم انك اذا اردت تشبيه الشيء بغيره فانما تقصد به تقرير المشبه في النفس بصورة المشبه به او بمعناه فيستفاد من ذلك البلاغة فيما قصد به من التشبيه على جميع وجوهه (١٢) .

وكأن العلوي نفى ان يكون احتذاء الصورة التشبيهية المتداولة هو ضربة لازب لكل مبدع لا ينبغي له ان يتجاوزها ، ومما يعزز المبدأ النقدي في الاعتداد بالمبدع وانتفاء تقييده بالرسوم المتوارثة ان بعض البلاغيين النقاد ذهبوا إلى ان التشبيه مجاز ، مما يجعل صيغ التفنن في الابداع تتنوع بتنوع التصورات والمواقف فضلاً عن خصوصية المبدع نفسه في استلهام عناصر البناء الفني وتوظيف مفردات الحياة ، وقد صرح ابن رشيق بذلك بقوله :

(١٠) كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر : ابو هلال العسكري تحقيق : علي محمد البجاوي ومحمد ابو الفضل ابراهيم : ط١ / القاهرة : ١٩٥٢ ص : ٢٤٣ .

(١١) البلاغة العربية في ثوبها الجديد — علم البيان — د. بكري شيخ امين : دار العلم للملايين بيروت — ط١/١٩٨٢ : ص ٥١ .

(١٢) الطراز : ٢٦٦/١ .

«واما كون التشبيه داخلاً تحت المجاز فلأن المتشابهين في اكثر الأشياء انما يتشابهان بالمقاربة على المسامحة والاصطلاح لا على الحقيقة»(١٣) .

وقال ضياءالدين ابن الاثير : «وان شئت قلت : ان المجاز ينقسم إلى توسع في الكلام وتشبيه واستعارة ....الا ترى انه اذا وجد التشبيه وحده كان ذلك مجازاً (١٤) .

ومما هو ذو دلالة عميقة في هذا السياق ما ذكره ابن قيم الجوزية(٧٥١هـ) في الفوائد : «والذي عليه جمهور اهل الصناعة ان التشبيه من انواع المجاز، وتصانيفهم كلها تصرح بذلك وتشير اليه» (١٥) .

وذهب الدكتور احمد مطلوب إلى اعتداد التشبيه مجازاً معللاً ذلك بأنه «يعتمد على عقد الصلة بين شيئين او اشياء لا يمكن ان تفسر على الحقيقة ، ولو فسرت كذلك لأصبح كذباً» (١٦) .

ولا شك ان المحدثين نأوا في معالجاتهم لموضوع التشبيه عن اسلوب التجزئة والتفريق والعناية بالأمور الصغيرة ، فنظروا اليه نظرة تكاملية تعتد بجوهر العملية الفنية للتشبيه .

فيرى عباس محمود العقاد التشبيه : «ان تطبع في وجدان سامعك وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك» (١٧) .

ونظر أحمد أحمد بدوي إلى البعد النفسي في عملية التشبيه متجاوزاً تركيز القدامى على البعد العقلي فيه ، فقال :

---

(١٣) العمدة : ٢٦٨/١ .

(١٤) المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر : ضياءالدين ابن الاثير . تحقيق : د. احمد الحوفي — د. بدوي طبانة، القسم الثاني — مكتبة نهضة مصر — القاهرة ط١/١٩٦٠ ٣٥٦/١ — ٣٦٦ — ص : ٣٥٦/١ — ٣٦٦ .

(١٥) الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان — ابن قيم الجوزية ، القاهرة — ١٣٢٧هـ — ص : ٥٤ .

(١٦) فنون بلاغية : البيان والبديع . د. احمد مطلوب — دار البحوث العلمية — الكويت ط ١/١٩٧٥ : ص : ٣٦ .

(١٧) الديوان في الأدب والنقد : عباس محمود العقاد — وابراهيم عبدالقادر المازني نقلاً عن (فصول في النقد عند العقاد) — عبدالمي دياب — القاهرة — ط٢ /١٩٧٢ :

«وليس التشبيه في واقع الأمر سوى ادراك ما بين امرين من صلة في وقعهما على النفس (١٨)» .

والتفت الدكتور محمد حسين الصغير إلى عنصر الابداع — وهو امر منوط بالمبدع وليس بمعايير جاهزة تفرض عليه — حين اشار إلى «قدرة التشبيه الخارقة في تلوين الشكل بظلال مبتكرة وازياء متنوعة لم تقع بحس قبل التشبيه . ولم تجر بها العادة ولاتعرف بداهة الا بلحاظ مجموعة العلاقات الفنية في التشبيه» (١٩) .

نخلص من ذلك كله إلى عناصر اساسية عرضها البلاغيون في رؤيتهم للتشبيه مما سيكون من مرتكزات البحث في التشبيه المقلوب من حيث وجوده او عدم وجوده .

١ — العلاقة الاقترانية بين المشبه والمشبه به هي علاقة تخييلية نفسية اكثر مما هي عقلية منطقية .

٢ — ليس ثمة ما يسوغ الزام المبدع ان يجعل المفردات التشبيهية المتوارثة هي الرسوم المحتذاة التي لا سبيل له إلى الحيدة عنها .

٣ — الاعتداد بالمبدأ الذي اقره البلاغيون من ان المشبه به هو محور التشبيه الأساس . وهو عادة الأوفر قوة في الوصف والأشد دلالة عليه، وانه الذي يمد المشبه بعناصر القوة التي تعزز موقعه وتوضح ابعاده .

* * *

٢ — التشبيه المقلوب : ومعيار القلب عند البلاغيين وموقفهم منه :

لقد شاع هذا المصطلح في المباحث الحديثة ، ومن ثمة فقد آثرنا اختياره ، على ان القدامى قد استخدموا غير هذا المصطلح ، ولكنهم اشاروا في غضون تحليلاتهم وتعليلاتهم إلى مفردة (القلب) وصفاً للظاهرة — كما سنرى— فأقدم

(١٨) من بلاغة القرآن : د. احمد احمد بدوي : مكتبة نهضة مصر — القاهرة — ط ٣/٩٥٠ ص : ١٨٧ .

(١٩) الصورة الفنية في المثل القرآني — د. محمد حسين الصغير ، دار الرشيد للنشر — بغداد — ١٩٨١ : ص : ١٦٨ .

تسمية لهذه الظاهرة هو ماسماه ابن جني(٣٩٢هـ)بـ (غلبة الفروع على الأصول) وقد وصفه بأنه «فصل من فصول العربية تجده في معاني العرب كما تجده في معاني الاعراب ،ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك الا والغرض فيه المبالغة» (٢٠).

وقد جاء ذلك في عقب وقوف ابن جني على قول ذي الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعته اذا البسته المظلمات الحنادس

اذ علق عليه قائلاً :

«افلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعاً ، والفرع اصلاً ، وذلك ان العادة والعرف في نحو ان تشبه اعجاز النساء بكثبان الأنقاء (٢١) .

ويقول في موضع آخر : «فقلب ذو الرمة العادة والعرف في هذا فشبه كثبان الأنقاء بأعجاز النساء » (٢٢) .

وابن الأثير سماه (الطرد والعكس) وقال فيه : «وهو ان يجعل المشبه به مشبهاً والمشبه مشبهاً به..ولاتجد شيئاً من ذلك إلا والغرض به المبالغة» (٢٣).

وسماه يحيى بن حمزة العلوي : (التشبيه المنعكس) تارة و (المعكوس) تارة اخرى ،كما في قوله : «وانما لقب بالمنعكس لما كان جارياً على خلاف العادة والالف في مجاري التشبيه ، لأن مطرد العادة في البلاغة على تشبيه الادنى ، فاذا جاء على خلاف ذلك فهو معكوس» (٢٤) .

وهؤلاء يمثلون الموقف الثابت ازاء هذه الظاهرة بوصفها قائمة على القلب والعكس حقيقة لا مناص من الاعتداد بها .

إلا ان جمهرة من البلاغيين كانت رؤيتهم تترجح بين القول بوجوده والايماء إلى انه ضرب من ضروب التشبيه جار على الأصل . فضلاً عن اننا

---

(٢٠) الخصائص : ابو الفتح عثمان بن جني – تحقيق : محمد علي النجار . القاهرة – ١٩٥٢ – ١/٣٠٢ .

(٢١) م.ن : ١/ ٣٠٠ .

(٢٢) م.ن : ١/٣٠٢ .

(٢٣) المثل السائر : ١٥٩ .

(٢٤) الطراز : ١/٣٠٩ .

لا نعدم من يقول بعدم وجوده سواء ذلك بين القدامى ام المحدثين ، وقد وقف البحث ملياً عند مقولات هؤلاء سبيلاً إلى تحرير هدفه في نفي التشبيه المقلوب.

واذ نقف عند عبد القاهر الجرجاني فنجده مشيراً الى ما يعتد من ضروب التشبيه المقلوب ، الا ان كلامه على ذلك يتخذ لنفسه منازع مختلفة توجهها ضوابط ورؤى ، يصف القلب بقوله : «ان يجعل الفرع اصلاً» (٢٥) واستخدم وصف القلب في قوله : «وقد يمتنع هذا القلب في طرفي التشبيه..»(٢٦).

ويرى انه كلما كان وجه الشبه بين الطرفين متقارباً واضحاً صح العكس من غير تأويل ، وكأنه بذلك لا يقول بوجود عكس او قلب ، لما يراه من تساوي الطرفين في قوة وجه الشبه ، وهذا ما يكون في تشبيه المحسوس بالمحسوس .

اما العكس الذي اشار اليه من غير اقتناع بوجوده اصلا ، ولم يصرح كذلك — بمنعه كما : صرح الرازي من بعده فانه جعله في ما نوعه التمثيل ، فان فيه بين المشبه والمشبه به تفاوتاً كبيراً في وجه الشبه ، واشترط للقول به ان يكون بقدر من التخيل والتأويل ومن ذلك قوله :

«وقد يقصد الشاعر على عادة التخييل ان يوهم في الشيء هو قاصر عن نظيره في الصفة انه زائد عليه في استحقاقها واستيجاب ان يجعل اصلاً فيها فيصح على موجب دعواه وشوقه إلى ان يجعل الفرع اصل ، وان كنا اذا رجعنا إلى التحقيق لم نجد الأمر يستقيم على ظاهر ما يضع اللفظ عليه» (٢٧)

ويأخذ عبدالقاهر بمقياس القوة في الوصف في المشبه به — وقد اعتددناه

(٢٥) اسرار البلاغة : عبدالقاهر الجرجاني : علق حواشيه : احمد مصطفى المراغي — مطبعة الاستقامة — القاهرة ١٩٧١ — ص : ٢٥٧ — وانظر :.ص : ٢٦٠ .
(٢٦) اسرار البلاغة : ص : ٢٥٦ .
(٢٧) اسرار البلاغة : ص : ٢٥٧ .

معياراً ثابتاً وسبيلا إلى نفي القلب او العكس — ويتضح موقفه من ان الوصف في قول الشاعر :

وبدا الصباح كأن غـرتـــــــه وجـه الخليفـة حيـن يمتـدح

حيث وجه الخليفة وهو المشبه به هو «ابلغ وأحسن وأمدح من تشبيه الوجه بالصباح» (٢٨) .

وفي بيانه للقيمة الفنية لهذا النمط يقرر بوضوح ان المبدع «وضع كلامه وضع من يقيس على اصل متفق عليه ، ويزجي الخبر عن امر مسلم لاحاجة فيه إلى دعوى ولا إشفاق من خلاف مخالف او انكار منكر» (٢٩) .

وذهب السكاكي إلى انه يسمى «اظهار المطلوب » (٣٠) كما سماه (قلب التشبيه) (٣١) — ويبدو ان السكاكي لم يكن على حال من القناعة انه يعالج موضوعه بتصور ان في الامر قلباً او عكساً ، على الرغم من انه ورث الفكرة من سابقيه ، وحين وقف عند هذه الظاهرة وشواهدها حمل الأمر على (الايهام) فقال : «وأما الغرض العائد إلى المشبه به فمرجعه إلى ايهام كونه اتم من المشبه» (٣٢) .

ومراده من الايهام — في ما ارى — هو التصور الخاص بالمبدع في ان المشبه به في سياق معين هو اكمل وأتم ، واذا كان الأمر كذلك فان من حق الأتم والاكمل — ولو تخيلاً — ان يكون مشبهاً به على الأصل وليس على القلب او العكس ، وعرض القاسم السجلماسي في كتابه (المنزع البديع) لقضية القلب في التشبيه اذ سماه (الجري على غير المجرى الطبيعي) ، واوضح فكرة القلب من خلال هذه التسمية فقال : «والجري على غير المجرى الطبيعي)

(٢٨) اسرار البلاغة : ص : ٢٥٨ .
(٢٩) اسرار البلاغة : ص : ٢٥٨ .
(٣٠) مفتاح العلوم : ص : ١٨٥ .
(٣١) مفتاح العلوم ، ص : ١٨٤ .
(٣٢) مفتاح العلوم : ص : ١٨٣ .

في التخييل والتشبيه هو عكس التشبيه ، وذلك بأن يؤخذ الشيء الذي يؤم تشبيهه وتخييل امر فيه ، فيجعل في الحمل فقط جزءاً اخيراً من القول ، ويؤخذ الامر الذي يؤم تخييله في الشيء وتشبيه الشيء به فيجعل في الحمل فقط جزءاً اول من القول لنوع من قصد الغلو والمبالغة في الوصف» (٣٣).

وأحسب ان السجلماسي اراد (بالحمل) ظاهر الأمر في ضوء الالف والعادة ، ولكنه ابى ان يقر بوجود القلب في جوهر العلاقة الاقترانية بين المشبه والمشبه به ، وذلك واضح في تتمة النص السابق ، فبعد تحليله لأحد الشواهد قال :

«... فعكس الأمر علواً ومبالغة في الحمل فقط ، اعني ان هذا الغرض باق قائم بنفس الشاعر ، الا انه قلب ذلك في مجرد الحمل فقط دون قلب الأمر والمعنى في نفسه» (٣٤) .

وفي عبارة اكثر وضوحاً وأدل على عدم قناعته بوجود قلب أو عكس في جوهر العلاقة التشبيهية يقول :

«... دون خروج الأمر في نفسه إلى الانعكاس والقلب (٣٥) .

وقد افضى به ذلك إلى مخالفة كثير من سابقيه من اعتداد بيت ذي الرمة الشهير عند غالب البلاغيين مثالاً من امثلة التشبيه المقلوب وهو قوله :

ورمل كأوراك العذارى قطعته اذا البسته المظلمات الحنادس

— كما سنوضح ذلك في الفقرة الثالثة من البحث —

اما الباحثون المحدثون فقد كان شأنهم مع التشبيه المقلوب كشأن القدامى ، فمنهم من اعتد بوجوده حقيقة لا مناص منه ، ولم يزيدوا في تعليلاتهم له عما أقره البلاغيون من قبل ، ومنهم من درس التشبيه من منطلقات غير مدرسية فكان ان اشاحوا بوجوههم عن هذه الظواهر التي حرص عليها البلاغيون المدرسيون ان يولوها شيئاً من عنايتهم ، فالقاريء يجد في غضون

(٣٣) المنزع البديع : ص : ٢٢٨ .
(٣٤) المنزع البديع : ص : ٢٢٨ .
(٣٥) المنزع البديع : ص : ٢٢٩ .

مباحثهم ما يعزز تصوره في ان فكرة القلب او العكس ما هي الا فكرة موهومة فرضها تصور تقليدي صارم قائم على وجوب احتذاء الخلف منهج السلف في توظيف التشبيهات .

يقول الدكتور بكري شيخ امين: كذلك اطردت العادة في البلاغة على تشبيه الأدنى بالأعلى ، فاذا جاء الأمر على خلاف ذلك فهو التشبيه المعكوس او المقلوب طلباً للمبالغة بادعاء ان وجه الشبه في المشبه اقوى منه في المشبه به» (٣٦) .

ولا يخفى ان هذه المقولة مستمدة نصاً وفكرة من مصادر البلاغة المدرسية، وهي عندها تحصيل حاصل لا محيد عنه .

وفي الوقت الذي يعتد الدكتور مجيد عبدالحميد ناجي بدور المبدع في رسم الصورة التشبيهية وامكانه «ان يكتشف وجهاً من وجوه الشبه يصلح للربط بين طرفي الصورة التشبيهية وتفاعلهما على النحو الذي يكون ملائماً لانفعاله» يعود ليقرر ان التشبيه المقلوب ظاهرة تعبيرية يهدف إلى «الاغراق في المبالغة .... ليكون التشبيه اقدر على اثارة الانفعال المناسب واحداث التخييل المطلوب»(٣٧)، وكأن الأمر هذا لا يتم الا بأن يعمد المبدع إلى اجراء مناقلة موضعية بين المشبه والمشبه به .

وكذلك اشار الدكتور صبحي البستاني إلى ان فكرة التشبيه المقلوب هي وليدة التصور بأن الصفة في المشبه به اقوى واوفر ، قال :

«ويبدو منطقياً ان تكون هذه الوحدات — اي وحدات الصفة المشتركة — في المشبه به اقوى مما هي عليه في المشبه .... وربما كانت هذه القاعدة المألوفة في التشبيه هي التي ادت إلى ما يعرف بالتشبيه المقلوب ، حيث يقلب المقياس

(٣٦) البلاغة العربية في ثوبها الجديد : ص ٥١ .

(٣٧) الاسس النفسية لأساليب البلاغة العربية — د. مجيد عبدالحميد ناجي . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع — بيروت . ط ١/١٩٨٤ : ص : ١٩٩ .

المذكور سابقاً ، وتغدو الوحدات المعنوية المشتركة اشهر في المشبه مما هي عليه في المشبه به» (٣٨).

ومما يدعونا إلى مؤاخذة الدكتور البستاني انه مازال يعتقد — وفق التصور الموروث — بثبات المشبه والمشبه به بشخوصهما وان اختلف موقعهما ، وهذا ليس بسديد — في ما ارى — ذلك ان تغيير الموقع يتبعه تغيير في الدلالة ، فهو يرى ان المشبه — في التشبيه المقلوب — يبقى مشبهاً، والمشبه به يبقى مشبهاً به ، وقد سبق لعبدالقاهر الجرجاني ان عالج هذا التصور غير المستقر بقوله :

«والحكم على احدهما — اي المشبه والمشبه به — بأنه فرع او اصل يتعلق بقصد المتكلم ، فما بدأ به في الذكر فقد جعله فرعاً — اي مشبهاً — وجعل الآخر — اي المشبه به — اصلاً» (٣٩) .

اما الدكتور رجاء عيد في دراسته الشاملة لفلسفة البلاغة وجوهر الدلالة الفنية لموضوعاتها لا يعتد بتفوق المشبه به في الصفة ، اذ يعد ذلك «مبالغات ذهنية سقيمة» لكن المعتد عنده — كما يقول — «ان تتعانق الصورة واجزاؤها مع السياق العام الذي يولد علاقة رمزية تشير إلى المتلقي رجاء نقاط تفجر واحدة منها طاقات فنية ذات نفسية خاصة (٤٠) .

ويرى كذلك أن «قيمة التشبيه لا يكتسبها من طرفيه فقط ولا من وجه الشبه القائم بينهما بقدر استمدادها من الموقف الذي يدل عليه السياق ويستدعيه الحس الشعوري المنبث خلال الموقف التعبيري» (٤١) .

(٣٨) الصورة الشعرية في الكتابة الفنية — الاصول والفروع . صبحي البستاني — دار الفكر اللبناني : بيروت ١٩٨٩ : ص : ٧٣ .
(٣٩) اسرار البلاغة : ص : ٢٦٢ وما بعدها
(٤٠) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور : د. رجاء عيد ، منشأة المعارف — الاسكندرية — ص ١٧٠ .
(٤١) م.ن : ١٧٠ .

ويعول في نجاح المهمة الأدائية والتصويرية للتشبيه على «قدرة صاحبه على اقامة معمار فني يتلبس القصيدة كلها ، مع قدرة صاحبها على ان يتجاوز في صيرورة دائمة ظواهر الأشياء ،ويتعدى مهلة الحس والعقل التي اسرف فيها البلاغيون» (٤٢) .

من خلال هذه الرؤية التحليلية ندرك ان لا مجال لأن تتحكم في المبدع معايير جاهزة بحجة الإلف والعادة لأنها اداة تسويق عن التحليق في عالم الابداع والحيلولة دون خلق علاقات جديدة بين الأشياء .

ووقف الدكتور كامل البصير عند هذا اللون من التشبيه سابراً غوره مدققاً هيئته متابعاً مراميه ،فرأى ان حال هذا اللون هو حال الوانه الاخرى ،فليس ثمة عكس او قلب البتّة .ذلك ان الامر راجع – كما اسلفنا آنفاً – إلى طريقة المبدع في توظيف مفردات صورته من غير ان يكون سابق تصميم على تغيير المواقع والنظر في المفردات على وفق معايير سابقة في جعل هذه المفردة – ة في نسيج التشبيه – اصلاً والاخرى فرعاً .

قال الدكتور البصير :

وفي ملاحظتنا ان هذا اللون من التشبيه قد تقر. في ضوء النظر المتفلسف وعلى قاعدة تحكيم الأسس العامة ،في حين أن فن التصوير ربما يتمرد على هذا الاحساس ويخرج عن ذلك النظر ، فهو لسان تجربة الشاعر واداة احساسه ،فهذه الأداة والتجربة ربما تطلق العنان لخيال الشاعر وتصوره ويرى مالا يرى غيره بعين الواقع وفكر العرف وحقيقة المعهود» (٤٣) .

وفي سبيل نفي فكرة القلب اورد الدكتور البصير امثلة من الشعر القديم محللاً اياها في ضوء ملاحظته السابقة في الاعتداد بمنهج الشاعر في توظيف ادواته الفنية ومن خلال رصيده من تجارب الحياة – ومن ذلك تعليقه على

---

(٤٢) م.ن : ١٧٠ .

(٤٣) بناء الصورة الفنية في البيان العربي – موازنة وتطبيق . د. كامل حسن البصير – مطبوعات المجمع العلمي العراقي – بغداد – ١٩٨٧ : .ص : ٢٩٧ .

بيت امرىء القيس .

فبينا نعاج يرتعين خميلة كمشي العذارى في الملاء المهدب

اذ يقول : «فامرؤ القيس قد رأى النعاج في حالهن تلك فألقى زمام خياله إلى ما رأى وقدم لنا صورته في هيئة اولئك العذارى» (٤٤) .

ويلخص البصير رؤيته في ان دراسة الصورة لا تخضع للمعهود والنظر العقلي بل هي «جارية على سنن العربية وماضية في تحقيق غرضها الشعوري والفني ، وليس لنا ان نرميها بالمبالغة والتنكر للمعهود والانقلاب على الأصل» (٤٥) .

وبذلك يفتح الدكتور كامل البصير الباب لمعالجات اصيلة لما تفرضه القيود البلاغية من احكام على العمل الابداعي ، وذلك بالاحتكام إلى المعايير الخاصة بالعمل الابداعي نفسه من صفاء السليقة والذوق العام وحرية المبدع في توظيف مفردات الحياة ، والخروج من دائرة الاجترار والتكرار لما سلف من صور الأقدمين .

٣ – العلاقة بين التشبيه المقلوب و تشبيه المحسوس بالمعقول

يجد الباحث في غضون دراسات البلاغيين للتشبيه ان ثمة رؤية خاصة لنوع من انواع التشبيه وهو (تشبيه المحسوس بالمعقول) ، ذلك ان بلاغيي المدرسة الكلامية بخاصة قد عالجوا هذا النوع بكلام يتصل – إلى حد كبير – بكلامهم على التشبيه المقلوب ، مما اقتضى ان نقف عند هذا الامر لنجد مدى العلاقة بينهما ، والمعيار الذي عولجت في ضوئه مشكلات هذا الموضوع .

اشترط عبدالقاهر الجرجاني – حين وقف عند بعض شواهد تشبيه المحسوس بالمعقول ليعالجها بمعيار العكس او القلب – ان مجيىء هذا اللون في التمثيل «كان مبنياً على ضرب من التأول والتخيل يخرج عن الظاهر

(٤٤) م.ن – ص : ٢٩٨ .
(٤٥) م.ن – ص : ٢٩٨ .

خروجاً ويبعد عنه بعداً شديداً» (٤٦) .

وفي دراسته لبعض شواهد (التمثيل) التي جاء المشبه به فيها عقلياً في معرض الموازنة بينها وبين شواهد ليس للتمثيل فيها اثر يقرر ان التشبيه فيها بني على القلب من باب جعل الفرع اصلاً والأصل فرعاً — كما جاء في تحليله لقول الشاعر :

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

اما السكاكي فقد جعل — على غرار ما فعل عبدالقاهر — شواهد تشبيه المحسوس بالمعقول من امثلة القلب والعكس ، ولم يشترط شرط عبدالقاهر مجيىء ذلك في التمثيل فحسب ، وانما اخذ منه معياره وهو ان مرجع ذلك إلى ايهام كون وجه الشبه في المشبه به اتم من المشبه ، وذلك في قوله :

«لأن المشبه به حقه ان يكون اعرف بجهة التشبيه من المشبه واخص بها واقوى حالاً معها» (٤٧) .

وهذا هو المعيار الثابت الذي استند اليه البحث في نفي القلب او العكس. ولعل في هذا السياق يسوغ للقارىء ان يتساءل : هل للجرجاني والسكاكي ومن جرى في مضمارهما رؤية محددة حاسمة لهذا اللون ؟ — اقول : ان من المعضلات التي يواجهها الباحث ذلك الاضطراب الذي يسود موقف الرجلين — بنحو خاص — من هذا اللون — فمن جهة يقرران امراً ساد في اوساط الدرس البلاغي وصفاً واصطلاحاً ،ومن جهة اخرى يجد الباحث في غضون معالجتهما قدراً من القناعة يستل ملامحها من بين سطور المعالجة ، وهذا ما حاول البحث ان يقف عنده .

ويتضح ذلك في اضطراب موقف فخرالدين الرازي (٦٠٦هـ)في دراسة هذا اللون ، فهو ينفي ان يكون هناك تشبيه المحسوس بالمعقول لانتفاء ذلك

---

(٤٦) اسرار البلاغة : ص : ٢٦١ .
(٤٧) مفتاح العلوم : ص : ٤ ١٨ .

في العقل .

يقول : «اما القسم الرابع وهو تشبيه المحسوس بالمعقول فهو غير جائز ، لأن العلوم العقلية مستفادة من الحواس ومنتهية اليه ... واذا كان المحسوس اصلاً للمعقول فتشبيهه يكون جعلاً للفرع اصلاً وللأصل فرعاً وهو جائز(٤٨)

الا انه يعود ليستدرك فيعتذر بما جاء في الأشعار من هذا اللون .

يقول — معترفاً بذلك : «وقد جاء كثيراً في الأشعار تشبيه المحسوس بالمعقول ..» (٤٩) .

ووجه التخريج في قبول هذه الامثلة ان يلجأ إلى(التقدير)فيقول : «واعلم ان الوجه الحسن في هذه التشبيهات ان يقدر المعقول محسوساً ويجعل كالأصل في ذلك المحسوس على طريق المبالغة ، وحينئذ يصح التشبيه» (٥٠) .

والتناقض واضح بين الموقفين ، وسببه انه قاس الابداع بمعايير عقلانية بحتة لا تستقيم مع نزعة الشاعر في فنية التوظيف للمفردات .

وواضح انه في التماسه العذر لمثل هذه الشواهد لم يبعد عن تصور العكس او القلب ،اذ اخذ بمعيار جعل الأصل فرعاً والفرع اصلاً لقبول هذا اللون من التشبيه .

ولعل الرازي حصر الكلام في هذا اللون (تشبيه المحسوس بالمعقول)في ما امثلته من التمثيل تأثراً بمنهج الجرجاني ومن اجل ذلك افرد لما ليس تمثيلا مبحثاً مستقلاً معيداً ما قاله الجرجاني في هذا الباب ،ناقلاً كلامه في دراسته للمثل المعروف .

وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

(٤٨) دراية الايجاز في نهاية الاعجاز : فخرالدين الرازي . تحقيق وتقديم : د. ابراهيم السامرائي و د. محمد بركات حمدي ابو علي — دار الفكر للنشر والتوزيع — عمان : ١٩٨٥ ص : ٩٣ .

(٤٩) م.ن : ص : ٩٤ .

(٥٠) م.ن : ص : ٩٤ .

ويعلق الدكتور كامل البصير على ما ذهب اليه الرازي مفنداً المذهب العقلاني الذي جعله معياراً لتحليل العمل الابداعي من غير طائل ، فيقول : «وفي يقيننا ان هذا المنع لتشبيه المحسوس بالمعقول يعتمد نظراً عقلياً ودليلاً منطقياً ، والنظر العقلي والدليل المنطقي لا يثبتان اذا لم يجدا من الشواهد الأدبية الأصيلة ما يجعلهما قاعدة بلاغية مستساغة . والحقيقة ان شواهد ادبية اصيلة جرى فيها تشبيه المحسوس بالمعقول فأقامت الحجة على ان ذلك المنع ليس من فن القول في شيء» (٥١) .

ويرى الدكتور احمد مطلوب ان «هذا اللون يحتاج إلى تخيل اكثر من غيره ، ولذلك نجد له امثلة كثيرة حينما بدأ الشعراء العباسيون يصورون المعاني تصويراً يعتمد على الخيال» (٥٢) .

ويحدد الدكتور فضل حسن عباس الباعث الذي دعا البلاغيين إلى تصور فكرة القلب او العكس هو انهم لاحظوا في امثلته ان وجه الشبه تخييلي ، يقول : «اما التخييلي فهو ما لا يوجد في المشبه به في الحقيقة الا على سبيل التخيل ، ويكون هذا في التشبيه المقلوب او في التشبيه الذي يكون فيه المشبه حسياً والمشبه به عقلياً» (٥٣) .

ومن ثمة فان الدارس يحس بعدم توافر القناعة التي تبلغ حد الحسم والجزم بوجود هذا النوع من التشبيه حقيقة قائمة بذاتها على مستوى الابداع اولاً ، ثم على مستوى التنظير ، وكانت صورة الخلط بين موضوعي القلب وتشبيه المحسوس بالمعقول دليلاً على عدم توافر تلك القناعة ، ولعل دراستنا المتأملة

---

(٥١) البلاغة والنط بيتي – د. احمد مطلوب – د. كامل حسن البصير – من مطبوعات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي – العراق – ١٩٨٢ : ص : ٢٧٢ (الرأي المذكور هو للدكتور كامل حسن البصير الذي كتب قسم البيان)

(٥٢) فنون بلاغية – ص : ٣٩ – ٤٠

(٥٣) البلاغة – فنونها وافنانها – علم البيان والبديع . د. فضل حسن عباس – دار الفرقان – عمان – ط ١/١٩٨٧ : ص : ٣٢ .

لشواهد البلاغيين تزيدنا بصراً بالموضوع وتوفر لنا اليقين الوافر على عدم وجوده ، بل اعتداده لوناً كسائر الوان التشبيه .

٤ — نصوص القلب — دراسة وتحليل

تنعقد هذه الفقرة على دراسة تلك الشواهد التي كانت موضع عناية البلاغيين لاثبات ظاهرة القلب او العكس ، وهي نصوص محدودة تتردد في مباحثهم يتناولها الخلف عن السلف ، ومن خلال وقوفنا عند هذه الشواهد نحاول ان تنفي فيها ما سمي بالقلب والعكس تارة باستشفاف رؤية البلاغيين انفسهم واخرى من خلال وجهة نظرنا الخاصة .

١ — قوله تعالى : «الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا : انما البيع مثل الربا ، واحل الله البيع وحرّم الربا — البقرة — ٢٧٥» .

قال الزمخشري : «هلا قيل : انما الربا مثل البيع ، لأن الكلام في الربا ، لا في البيع ، فوجب ان يقال : انهم شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه ، وكانت شبهتهم انهم قالوا : لو اشترى الرجل مالا يساوي الا درهماً بدرهمين جاز فكذلك اذا باع درهماً بدرهمين قلت : جيء به على طريق المبالغة وهو انه قد بلغ من اعتقادهم في حل الربا انهم جعلوه اصلاً وقانوناً في الحل حتى شبهوا به البيع ، وقوله : واحل الله البيع وحرم الربا — انكار لتسويتهم بينهما» (٥٤) .

مما يستخلص من كلام الزمخشري ان ليس ثمة قلب او عكس ، في ضوء معيارية ثابتة وهي اعتقاد الذين جاءت الآية على السنتهم — وهم مستحلو الربا — ان الربا عندهم هو الأصل فبني التشبيه على هذا الأصل ، وليس مطلوباً منهم — وهم يتحدثون عن حقيقة ما يتصورونه او يؤمنون به — ان يأتوا بالصيغة التي تؤدي الغرض في تصورنا ولا توافق تصورهم وايمانهم .

(٥٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل — ابو القاسم جارالله الزمخشري — دار الفكر — المجلد الأول — ص : ٣٩١ .

فهم – فضلا عن ذلك – ارادوا ان يلحقوا بيع المؤمنين برباهم الحاق فرع بأصل – وهذا هو اصل مبنى كل تشبيه .

ثم ان ما قرره عبدالقاهر الجرجاني من سهولة ان يحل احد الطرفين محل الآخر دون ان يكون في الأمر الحاق فرع بأصل او اصل بفرع ، او الحاق زائد بناقص يمثل رؤيته الثابتة في ان كل تركيب يأتي في سياق المعنى الخاص – وهو جوهر نظرية النظم – ليعبر عن الرؤية الخاصة والموقف الخاص للمتكلم .

ولعل السيوطي كان اوضح في تحديد الدلالة في الآية الكريمة اذ قال : «وجعلوا الربا اصلاً ملحقاً به البيع في الجواز ، وانه الخليق بالحل» (٥٥)

٢– ورمل كأوراك العذارى قطعته اذا البسته المظلمات الحنادس

هذا البيت من اقدم ما نبهنا اليه ابن جني شاهداً للتشبيه المقلوب ، قال : «افلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعاً ، والفرع اصلاً ، وذلك ان العادة والعرف في نحو هذا ان تشبه اعجاز النساء بكثبان الانقاء» (٥٦) .

لاشك ان ابن جني حين تعامل مع هذا البيت استحضر امامه شواهد ورد فيها التشبيه على خلاف النسق المألوف ، ومنها قول الشاعر :

ليلى قضيب تحته كثيب وفي القلاد رشأ ربيب

الا انه لم يورد لنا شيئاً من شواهد تشبيه اعجاز النساء بكثبان الانقاء ليتسق له القول بالقلب والعكس ، ولكن يبدو انه كان مدفوعاً إلى ذلك بما استقر في الأذهان من ان ثمة اصلاً قائماً على تشبيه الاعجاز بالكثبان ، ولا مناص من الشاعر ان يلتزم ذلك ، ولذلك ذهب إلى تعليل وجده خلاف الأصل بقوله : «وهذا كأن يخرج مخرج المبالغة» (٥٧) .

---

(٥٥) معترك الاقران في اعجاز القرآن –جلال الدين السيوطي . تحقيق : علي محمد البجاوي دار الفكر العربي – القاهرة – القسم الأول – ص : ٢٧٤ .

(٥٦) الخصائص : ١/٣٠٠ .

(٥٧) الخصائص : ١/٣٠٢

وقد اخذ القاسم السجلماسي بمبدأ التساوي في الوجه بين المشبه والمشبه به، فلم يجعل في وضعه احدهما موضع الاخر من (القلب او العكس) الاصطلاحي الذي يتوخى فيه قصد المبالغة، ولذلك فان بيت ذي الرمة عنده : ورمل كأوراك العذارى ... هو — عنده — «تشبيه غير معكوس على ما عليه كل تشبيه» (٥٨) .

ويرد على من جعله من التشبيه المعكوس كابن جني وذلك بقوله : «وكان قول من اولع بوضعه في نوع عكس التشبيه غلطاً سببه ان من المعلوم بنفسه ان ما اشبه شيئاً فقد اشبهه الشيء ويتعاكسان بينهما التشبيه على ان كل واحد مشبه والآخر تشبيهاً بحسب القصد على المجرى الطبيعي لا في الحمل فقط» (٥٩) .

وفضلاً عما قيل فاننا نعتد بالمعيار الرئيس اي معيار البلاغيين النظري وهو ان المشبه به اوفر قدرة من المشبه على تجسيد الوصف المشترك، ولذلك فان اعجاز النساء في حس الشاعر ووجدانه اوفر قوة وادل على الوصف المشترك من رمال الصحراء وكثبانها، فللشاعر تجربة في معاشرة النساء جسدياً، وحين واجه تجربة الكثبان الرملية ربطها بصورة تختزن ذاكرته ابعادها، وهي ليست بعيدة عن تصوره، ومن ثمة فان الشاعر جرى في بناء التشبيه على النسق المألوف في وضع كل من المشبه والمشبه به في سياقاتهما الفنية وبذات المعيارية المعتد بها على المستويين الابداعي والتنظيري .

٣ — وكأن النجوم بين دجاها سنن لاح بينهن ابتداع

يقف عبد القاهر الجرجاني من هذا البيت وقفة خاصة، لأنه جاء شاهداً على التشبيه التمثيلي، فيتساءل في ما معناه: هل جاء هذا على نمط التشبيه المقلوب الذي يمكن فيه جعل المشبه مشبهاً به تارة والمشبه به مشبهاً تارة أخرى (٦٠) .

(٥٨) المنزع البديع : ٢٢٩ .
(٥٩) المنزع البديع : ص : ٢٢٩ .
(٦٠) اسرار البلاغة : ص : ٢٦٠ .

للاجابة عن هذا التساؤل يذهب إلى ان هذا المثال يختلف عن قولنا « كأن النجوم مصابيح تارة ، و كأن المصابيح نجوم أخرى .... وذلك ان الوصف هناك لا يختلف من حيث الجنس والحقيقة ، وتجده العين في الموضعين ، وليس هو في هذا مشاهداً محسوساً ، وفي الآخر معقولا منصوراً بالقلب ممتنعاً فيه الاحساس »(٦١) .

ويحاول — من بعد — ان لا يلحق هذا المثال بالتشبيه المقلوب ، لأن دلالة المشبه به — عنده — مدركة بالتأويل ، فضلا عن ان معيار القلب غير متوافر في هذا المثال لاختلاف الطرفين من حيث الجنس والحقيقة ، وبسبيل اثبات ان التشبيه لم يجر على منهج القلب ان صورة المشبه به في هذا المثال معروفة الأبعاد مألوفة الدلالة ، يقول : « فتأويل البيت انه لماشاع وتعورف شهر وصف السنة ونحوها بالبياض والأشراق » (٦٢) .

ويعلق السكاكي على هذا البيت في محاولة لنفي القلب فيه — وان لم يصرح بذلك — فيقول : « قصد في تشبيهه هذا تفضيل السنن في الوضوح على النجوم وتنزيل البدع في الاظلام فوق الدياجي » (٦٣) .

وواضح ان ما كان المفضل في التشبيه هو المشبه به لما فيه من زيادة في الوصف المشترك ، وهو بمثابة بؤرة الضوء التي ينبثق منها اشعاع التوضيح والتبيين لأبعاد المشبه ، فاذا ما فضل الشاعر السفن على النجوم فانه يكون قد جرى على النهج الطبيعي للتشبيه ، وبذلك يكون السكاكي قد نفى القلب في هذا المثال .

ولا بد من الاشارة أيضاً إلى ان شرف الدين الطيبي (٧٤٣ هـ) قد أورد هذا البيت في شواهد التشبيه البعيد المتناول (٦٤) .

---

(٦١) اسرار البلاغة : ص : ٢٦١ .
(٦٢) اسرار البلاغة : ٢٦٢ .
(٦٣) مفتاح العلوم — ص : ١٨٤ .
(٦٤) التبيان في البيان — شرف الدين الحسين بن محمد بن عبدالله الطيبي تحقيق د. توفيق الفيل — وعبداللطيف لطف الله — ط١/١٩٨٦ — الكويت / ص ١٦٨ .

وفضلا عما قيل فان رؤية [illegible] خضم انتشار البدع أثراً خاصاً في النفس ،حيث الالتزام بالسنة عند شيوع الضلالات والبدع يمنح صاحبه ميزة على غيره ،ومن ثمة اكتسب المشبه به تفوقاً في دلالته على وصفي الاشراق والاظلام ،وهما أمران معنويان مغروفا الدلالة بازاء ضآلة حجم هذين الوصفين في النجوم الحقيقية والظلام الحقيقي.

٤ — وبدا الصباح كأن غرته وجه الخليفة حين يمتدح

يقول عبد القاهر بشأن هذا المثال : فهذا على انه جعل وجه الخليفة كأنه أعرف وأشهر وأتم وأكمل في النور الضياء من الصباح ، فاستقام له بحكم هذه النية ان يجعل الصباح فرعاً ووجه الخليفة أصلا ،...لأنه وضع كلامه وضع من يقيس على أصل متفق عليه » (٦٥) .

واضح ان عبد القاهر قد اعتد برؤية الشاعر في توظيف ادواته وتشكيل صورته الفنية المطلوبة من غير ان يكون قد حاد عن سنن التشبيه الثابت وهو ان الوصف في المشبه به أقوى وأوفر ،ولذلك ذهب إلى التعبير عما في وجدان الشاعر من تصور وجه الخليفة قد رجح فيه الوصف قوة على غرة الصباح حيث كان — على حد قوله — (اعرف وأشهر وأتم وأكمل في النور والضياء) فاذا كان الأمر كذلك كان هذا التشكيل جارياً على النهج البلاغي السديد ، ولا موجب للقول بالقلب أو العكس ، فاذا كان ثمة من يشبه الوجه بغرة الصباح فان ذلك أمر آخر لا صلة له بهذا التشكيل ، فلكل من الحالتين أو الصورتين مسار وباعث وهدف يقتضيه السياق والموقف .

لقد كان عبد القاهر أوضح بياناً حين قرر قاعدة بناء التشكيل الفني مفتدأ بها فكرة الأصل والفرع أيضاً ،اذ قال : « والحكم على أحدهما — أي أحد طرفي التشبيه — بأنه فرع أو أصل يتعلق بقصد المتكلم ،فما بدأ به في الذكر فقد جعله فرعاً وجعل الآخر أصلا» (٦٦) .

---

(٦٥) اسرار البلاغة : ص : ٢٥٨ .

(٦٦) اسرار البلاغة . ص : ٢٦٣ .

وقد أضاف السكاكي في تحليله هذا المثال قوله : « فانه تعمد ايهام ان وجه الخليفة في الوضوح أتم من الصباح » (٦٧)، ويشير بذلك إلى فعل الخيال في النسيج الفني ، وهي ذات فكرة التأويل التي وردت عند عبد القاهر .

وازاء ذلك البيان الواضح لا نجد في انفسنا ما يدعونا إلى القناعة بأن الشاعر قد عمد إلى القلب ، لا سيما وأنه في موقف يعقد فيه آماله على الخليفة ان يكون مصدر عطاء وخير ، فما الذي تحققه له (غرة الصباح) في ما يراوده من آمال ، فلا عجب اذن ان يتضاءل في هذا السياق حجم الصباح مهما كان مقدار اشراقته بازاء (وجه الخليفة) وهو عنده أكثر اشراقاً أي هو أكثر عطاءاً ، فهل للشاعر من سبيل غير ان يجعل وجه الخليفة هو المشبه به ممثلا بذلك موقفه الطبيعي في نسيج الصورة التشبيهية .

٥ – في طلعة البدر شيء من محاسنها وللقضيب نصيب من تثنيها

أورد البلاغيون هذا المثال في كتبهم على أنه من أمثلة التشبيه المقلوب (٦٨) ولعلهم حين نظروا إلى دلالة القلب فيه اعادوا إلى ذاكرتهم ما وعت من أمر النمط الشائع وهو تشبيه محاسن المرأة بطلعة البدر واشراقته ، وتشبيه تثنيها – حين تقبل أو تدبر – تبتني قضيب البان ، ولما رأوا الامر على غير ما اعتادوا قالوا بأن التشبيه قد قلب أو عكس ، في حين ان الشاعر لم يخطر بباله مثل هذا التصور بل رأى ان محاسن تلك الفتاة هي من الروعة والتألق ما يحس أزاءه انها طاغية على ضوء القمر ، وكذلك الأمر في صورة تضاؤل القضيب ازاء جمال قامتها .

فجرى بذلك على الأصل الذي يجعل المشبه به أقوى دلالة على الوصف .

---

(٦٧) مفتاح العلوم : ص : ١٨٣ .

(٦٨) الخصائص ٣٠٢/١ – ألحقه ابن جنى بمثال ذي الرمة . ورمل كأوراك العذارى ...
الطراز : ٣١١/١ – قال العلوي آخذاً بفكرة القلب :
«فالعادة جارية على جهة الاطراد في تشبيه الوجوه الحسنة بالبدور فعكس البحتري هذه القضية وشبه البدر بها مبالغة في الأمر وتعظيماً لشأنها» .

٦ – رب ليل كأنه أملي فيك وقد رحت عنه بالحرمان .

قال عبد القاهر في تحليله هذا البيت : « لما كان يقال في الأمر لا يرجى له نجاح : قد أظلم علينا هذا الأمر ، وهذا أمر فيه ظلمة ، ثم اراد ان يبالغ في التباس وجه النجح عليه في أمله تخيل كأن أصله شخص شديد السواد ، فقاس ليله به ، كأنه يقول : تفكرت في ما أعلمه من الأشياء السود ، فرأيت صورة أملي فيك زائدة على جميعها في شدة السواد فجعلته قياساً في ظلمة ليلي الذي جبته » (٦٩) .

ولعلك واجد في هذا التحليل مذهب عبد القاهر في عدم الأخذ بفكرة العكس أو القلب ، لأن فعل الخيال قد جعل من الأمل الذي لم يتحقق فأحس بظلمته المعنوية أشد على نفسه من سواد الليل الذي قد يكون حبيباً إلى النفس أحياناً . وحسبنا مما ذكر عبد القاهر قوله الواضح الدلالة « فقاس ليله به » ، ليكون سبيلنا – باطمئنان – إلى القول بنفي القلب في هذا المثال وغيره – معولين في ذلك على ثبات معيارية المشبه به الذي يتميز على المشبه بقوة دلالة الوصف فيه .

٧– كأن انتضاء البدر من تحت خيمة نجاء من البأساء بعد وقوع .

أورد السكاكي هذا المثال شاهداً على قلب التشبيه ، إذ قال : « فانه لما رأى العادة جارية ان يشبه المتخلص من البأساء بالبدر الذي ينحسر عنه الغمام قلب التشبيه ليرى ان صورة النجاء من البأساء لكونها مطلوبة فوق كل مطلوب أعرف عند الانسان من صورة انتضاء البدر من تحت غيمة فشبهه هذه بتلك » (٧٠) .

ترى لماذا يفرض البلاغي على المبدع ان يشبه المتخلص من البأساء بالبدر الذي ينحسر عند الغمام ، وأي شاعر أورد في شعره مثل هذه الصورة لتكون أصلا سابقاً ويكون غيرها فرعاً لاحقاً ، وهل وضع الشاعر – حقاً – هذا

(٦٩) اسرار البلاغة : ص : ٢٦٧ – ٢٦٨ .
(٧٠) مفتاح العلوم : ص : ١٨٤ .

الأصل في الحسبان ثم قلب الأمر ! لا أحسب ان شيئاً من ذلك هو الحاصل ، لان الموضوع الأول هو (انتضاء البدر من تحت غيمة) ، ثم عمد الشاعر إلى ان يقرنه بصورة أقوى دلالة وأوفر في الوصف المشترك فوجد ذلك في (نجاء المتخلص من البأساء) ، فجرى على المعيار الثابت التي اشار اليها السكاكي نفسه بقوله : « ان صورة النجاء من البأساء أعرف عند الانسان من صورة انتضاء البدر من تحت غيمه » وعلى هذا جرى الشاعر ، اذ لا عكس ولا قلب البتة . ولعل الذي دعا إلى القول بالعكس ما حذر من بعض البلاغيين — كالرازي مثلا — (٧١) من تشبيه المحسوس بالمعقول ، لانتفاء ذلك — في تصورهم — عقلا ولكن واقع الابداع يتجاوز هذا التحذير ، ولاسيما عند من قال بعدم جواز هذا التشبيه ، ثم اعتذروا عن ذلك بالتماس وجه الحسن في هذا النوع شرط «ان يقدر المعقول محسوساً ويجعل كالأصل في ذلك المحسوس على طريق المبالغة وحينئذ يصح التشبيه» (٧٢) .

ومبنى ذلك كله على فعل الخيال الذي هو من شأن المبدع وحده ، فان استتام له الأمر بما تقرر من ثبات معيارية المشبه به الاوفر دلالة على الوصف المشترك فان مفهوم القلب ينتفي تبعاً لذلك . «فهو يتخيل في المعقول صفة محسوسة أولاً ، وان هذه الصفة أقوى في المعقول منها في المحسوس ثانياً» (٧٣) .

ومن بعد — فان البحث قد بلغ بالقارىء إلى مشارف القناعة بأن التشبيه المقلوب ضرب من الأوهام التي فرضت نفسها على الدرس البلاغي — والحمد لله أولاً وآخراً .

---

(٧١) نهاية الايجاز ودراية الاعجاز : ص : ٩٣ .
(٧٢) م . ن : ص : ٩٤ .
(٧٣) البلاغة فنونها وأفنانها : ص : ٣٦ .